مجموعة قصصية

بول بورجيه

الابن

ترجمة كمال الحريري

الابــن

مجموعة قصصية

بول روجيه

دار المحرر الأدبي

اشتراك في الإثم. . .

لقيت في ميلان على رصيف المحطة (آدم ريموند) بينما كنت اصعد إلى قطار من تلك القطر التي يتبجح الإيطاليون بتسميتها (البرق). بصور أن هذه القطر لا توصلك في أقل من سبع ساعات إلى بلد لا يستغرق الوصول إليه أكثر من خمس. ماذا، أتتسخط أتتذمر؟؟ إنك إن تفعل يجيبوك بابتسامة رقيقة لا تقاوم (ذلك هو الحظ الإيطالي! أيسخرون من أنفسهم أم يستهزئون بك؟؟ مهما يكن من الأمر فأنت مجبر على أن تغتفر لهذا القطار (البرقي) استراحاته المستمرة على طول الطريق ليتسلم حزم البريد من كل محطة. ومع ذاك ففيم الحنق والإنكار وأنت في رحلة لذيذة إلى (جه ن) لمشاهدة (القصر الأحمر) و (القصر الأبيض)؟ ذلك أني كنت أقصد (جه ن) حين دلفت إلى (آدم ريموند) وكأن قاصدا إليها أيضا فسألني:

- أترغب في مرافقتي يا صديقي؟ فأجبته وأنا أتقدمه في صعود القاطرة (ليس احب إلي من هذا) مع أني لم اكن مخلصا في قولها، لا لأن شخص (ريموند) كان مقيتا إلى، فهو فتى رقيق

الحاشية ظريف الطبع، ما أنكرت منذ العشرين عاماً التي مرت على تعارفنا شيئا من علاقتنا الودية معا، رغم اختلافنا في الذوق والمنزع. زد على ذلك أنه حديث بارع ظريف الحوار له من ثروته الفائضة عن حاجاته ما يسمح بالارتحال والسياحة. ولقد ساح فعلا في بلاد كثيرة وشاهد ممالك مختلفة على أنه مهما كان من شأنه فهو (باريسي) وعندما لا يستطيع المرء أن يختلس من شتائه غير عشرين يوما يخصصها للاستحمام في حمامات إيطاليا، يتخوف ويتهرب من كل ملاقاة من شأنها أن تقذفه ثانية إلى (باريسه) المتروكة.

قص علي (رايموند) قصة كانت من التأثير على بحيث أريد أن أقصها بدوري، لأنها تتعلق بسلسلة من (حالات الضمير) وبالرغم مما قاله عنها (باسكال) فإن كل ما في الحياة الإنسانية من خير وجمال إنما يصدر عن هذه (اليقظات الوجدانية) وعما تؤدي إليه من حلول. لقد كان رفيقي يسرد على هذه الحكأية، على حين يطوي القطار المسافة من (نوفي) حتى (سمبيه دارينا) في هضاب مرتفعة متعوجة على طول الوادي الضيق الذي تتلوى فيه (سكرفينا) الموحشة ولقد كنا

نتبادل على مصادفات الطريق كثيرا من المناسبات والأحاديث، حين طرح على هذا السؤال العارض البسيط:

- أين تنزل في (جه ن)؟

فسميت له فندقا خارجا بعض الشيء عن منطقة أشباهه من فنادق المدينة. كنت أفضله لبستانه الفينان الواسع.

فقال (رايموند).

- يؤسفني إذا أننا سنفترق فكر يا صديقي في أن هذا الفندق يثير في نفسي ذكرى مؤلمة، وأني لأتطير أبدا من العودة إلى مكان جرى لي فيه حادثة مكروهة مزعجة. حادثة؟؟ إن هذا التعبير مجاوز حده. ولكن مع ذلك. . .

وسكت قليلا ثم قال: أتحب أن اذكر لك هذه الحادثة، خصوصا وأني ارغب في معرفة ما عساك تفعله لو كنت محلي آنذاك؟ لسوف أبدل لك أسماء أبطال القصة، وبهذا لا تعلم عن هويتهم شيئا. ثم ساق لي رايموند القصة فقال:

مضى على هذه الواقعة التي أنا بصددها خمسة عشر عاماً، وكأن ذلا لأول زيارة ازور فيها (جه ن) هبطت إذا ذلك الفندق الذي ذكرته أنت، لنفس الأسباب التي حببته إليك.

–

وكأن الوقف خريفاً. وأؤكد لك أني زرت يومئذ جميع القصور والكنائس الشهيرة: قصر الفنان فانديك، قصر ده برينيول، سان بالبي، به ران، وكنيسة (سانت اسطفانو) و (سانتا ماريا) وتماثيل (ده سانت لورانزو) من هذا تعلم أني جواب بحق، وفي المساء بينما كنت جالسا إلى عريشة أنيقة من عرائش بستان هذا المنزل أدون بعضاً من مشاهداتي وتأثراتي اليومية، إذا برنين صوت نسائي على بضع خطوات مني في ممشى من مماشي البستان، يهزني من محلي. لقد كانت غادة تتكلم وهي تظن نفسها على التأكيد منفردة وفي نجوة من الآذان المتطفلة، وبجانبها فتى يمشي متمهلا مترفقا. وكانت جمل الحوار التي يرددانها، دارجة كثيرة الاستعمال مما يؤكد أنهما في حداثة الحب.

- كانت تقول (آه يا حبيبي العزيز. ما كنت لأجسر حتى على الحلم بهذا: أن أكون هنا بجانبك إزاء هذا البحر وتحت هذه السماء وأمامنا ساعات طويلة للمتعة واللذاذات؟؟ فأجابها صاحبها:

- أما أنا فلست أقل منك سعادة وسرورا، لأني لم أكن أحلم أن باستطاعتك الانطلاق حرة إلى هنا. . ولكن ليكن رائدنا

الحيطة، ولنعد إلى النزل فأنه أمن لنا من هذا البستان المكشوف الذي ربما نلقى فيه أحدا يعرفنا، فأسالته:

- ومن يكون إذا؟ أنه لمن الممتع اللذيذ أن أنشق هذا النسيم المنعش واشهد مغيب الشمس الجميل بصحبتك.

فقال الشاب:

- ومع هذا لقد كنت احسن صنعا، من هنيهة لو أني حين نزولي الفندق اتبعت فكرة البحث في قائمته عمن فيه من السواح. فأجابته الغادة بغتة العتاب الرقيق:

- يا ضنين؛ أتراك تأسف على عدم اختلاسك مني هذه الخمس دقائق؟ آه لو كنت شغوفا بي كل الشغف، ما تعاقلت كل هذا التعاقل، ولما عرفت لك كل هذه الفطنة والحذر.

فأجابها رفيقها:

- ولكن ذلك كله من أجلك يا حبيبتي وإنما ابغي بكل جهده مستطاع أن أجنبك المخاوف والمتاعب.

فتنهدت الفتاة قائلة:

ليأت من يريد أن يأتي، أني من الغبطة والانتشاء بالسعادة بحيث يستوي عندي كل شئ. أسمعت؟؟ كل شئ لا يهمني. ومر العاشقان بدون أن يلمحا شخصي، واترك لك الآن

الحكم على مبلغ اضطرابي ومبعث ارتجاجي. لقد عرفت في شخصي هذه الصبية المستهامة التي لم تستطع أن تحبس لسانها عن الجهر بسعادتها وهواها، امرأة صديق من أعز أصدقائي وأخلص خلصائي. واسمح لي أن أطلق عليه سياقا للقصة (شارل روتيه) واسم امرأته أن أحببت (مارغريت) أما شريكها في هذا الموعد الغرامي لدى هذا الفندق المتطرف الضائع (بجه ن) فقد كان مجهولا عندي. ولا بأس أن تعلم أيضا، أني أثناء ذهابي في صباح تلك الملاقاة للبحث في شباك البريد عما لي من رسائل، تسلمت من نفس صديقي (روتيه) في باريس، رسالة يقص على فيها أن قرينته تستفيد من سياحتها القصيرة بإيطاليا عند ابنة عم لها دعتها إليها كي تقضي خمسة عشر يوما في (فلورنسا) و (روما) ولقد سمى لي في رسالته اسم هذه (الابنة العم) بلهجة الامتنان والشكران على ما قدمته لامرأته الحبيبة من متعة وسرور. لم تكن عائلة صديق (روتيه) معدودة من العوائل الواسعة الثراء؛ فهو نفسه كان في مفتتح مهنة المحاماة التي بدا يلمع فيها نجمه ويعلو. أما ابنه العم فهي على العكس من ذلك: كان إيرادها في السنة مائة ألف فرنك. ولقد كنت اعلم كل هذا التفاصيل باعتباري كنت شاهدا

لزواج صديقي (شارل روتيه) واذكر يومئذ أني سرت وابنة العم هذه في مركب القرآن وقد عقدت ذراعي بذراعها. دخل المحبان بهو الفندق منذ زمن، حيث أخذا هناك لا شك يتناولان الغداء على انفراد في جو من الإيناس المسكر الخطر، الذي خطره وحده يخلق اللذة والمتعة في العلاقات المستورة أما أنا فكنت ما أزال في البستان جالسا إلى المنضدة الصغيرة محدقا في دفتري المفتوح، غارقا في لجج التفكير. وبعد أن ثبت لدي انهيار بناء تلك العائلة، سأشعر بمض الألم أكثر من شعوري بعاطفة السخرية. ولكن أليس من السخر ما هو الألم مجسما؟ إن التناقض الظاهر بين حضوري مراسيم حفلة الزواج تلك، وهذا الموعد الغرامي أفعم قلبي منذ ذلك الحين مرارة غريبة أليمة. أضف إلى هذا أن (روتيه) كان عندي صديقا عزيزا. وهو يعبد امرأته التي تزوجته بالرغم من إرادة والديها. كما أني كنت اعرف تمام المعرفة أن شارل كان يرهق نفسه في العمل كل الإرهاق مناجل ترفيهها وتدليلها وأنه وهو العقيم الذي لم يرزق ولدا كان توأما إلى النسل. وأظنك لو جمعت كل هذه الأسباب جملة قدرت الاضطراب النفسي الذي أوقعني فيه ذلك الاكتشاف المفاجئ: اكتشاف المرأة المعبودة المقدسة

تخون زوجها هذه الخيانة النكراء. ترى كم مضى من الزمن على هذه المغامرات؟ ثم أين التقت بهذا الفتى الذي لا اذكر أني شاهدته أو صادفته عندهم؟ وأخيراً ما هو الدور الذي تلعبه (ابنة العم) في هذه المأساة؟ أترى (مارغريت) متواطئة معها، أم أن الزوجة الخائنة استطاعت أن تجد الوسيلة لخداع ابنة العم، كما خادعت زوجها؟ وهل تكون هذه الملاقاة هي الأولى التي بات العاشقان فيها الواحد للآخر؟ من يدري لعل هذا الولد الذي يهفو صديقي إلى إيجاده مدفوعا بغريزة الأبوة النبيلة، أن يتولد ويتخلق هنا في هذا المنزل الذي أرى من خلال أغصان أشجاره، واجهته المضيئة بالنقوش والمثقبة بالنوافذ والشبابيك؟! ثم أي نافذة من تلك النوافذ هي التي تتفتح على الغرفة التي يأوي إليها الزوجان غير الشرعيين؟! كل هذه الأسئلة كانت تخطر على ذهني دفعة واحدة، ثم تتجمع كلها حول هذا السؤال الأخير، عجبا ما هو واجبي أنا؟... هناك حكمة هندية تعلمها جيدا كما اعلمها تقول: لا ينبغي أن تضرب امرأة حتى بزهرة، إن فكرة الشرف والفروسية التي أنغرست في أعماقنا منذ عصور بعيدة كانت من التمكن (والتسلط) على بحيث أخذت اردد في نفسي: إن واجبي هو

التزامي حدود الصمت والكتمان... السكوت؟ الكتمان؟... ورحت أتخيل (شارل روتيه) كما اعتدت رؤيته غالبا منذ زواجه مكباً على أضابير (زبائنه) يستقبلني في غرفة أعماله بهذه الكلمات أو ما يماثلها: ليس لدى من الوقت ما يمكنني من مصافحتك أني لأغص بالأشغال وأرهق بالدعاوى. ومصالحي وأعمالي تزيد وتطرد يوما فيوما. وثروتي الصغيرة تنمو معها أيضا ومع ذلك لا شئ يعجز الإنسان حين يكون له شخص حبيب إليه. كنت أتمثل وجهه وكأنه قناع جمدته المشاغل وحضرته المتاعب، تضئ من خلاله ابتسامة سعيدة راضية.

يا للجمود أفي الوقت الذي ينصب صديقي جسمه ويقتل نفسه بالانكباب على العمل المرهق ليؤمن لامرأته أسباب ترفها وبذخها تسلم هذه الأخيرة زمام فؤادها وعواطفها إلى شخص آخر؟ إنها لتنفق على تجملها وتزينها مالا بعرف جبين زوجها. وكل ذلك كي تعجب رجلاً غيره وا أسفاه! وأنا نفسي، هل يجمل بي أن أسمح باستغلال أتعاب صديقي النزيهة الشريفة على هذه الصورة المخزية، من قبل هذا السارقة الخبيثة بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت؟ أأصمت فلا أنطق؟ ولكن ذلك اشتراك في الإثم!! ومرت على الذاكرة عهود

صداقتي الطويلة المدى مع شارل: فتمثلته في سن العاشرة، بقميصه المدرسي المشابه لقميصي، وتمثلت ملاهينا وألعابناً آنذاك. ثم تخيلته في الخامسة عشرة وأنا معه في سفرة قصيرة لعطلة قضيتها عند أهله في الريف. لقد كنا طالين داخليين بمدرسة (لويس كراند) ترى أكنا سعداء ذلك الصيف بانصرافنا عن مرج المدرسة البارد الضيف إلى سهل (لوار) الأخضر الممرع؟ ثم تصورت صديقي في العشرين من عمره يمارس معي خدمته العسكرية، وكيف كانت بعد ذلك حياتنا في الحي (اللاتيني) ونحن نتابع دراستنا معا في كليه الحقوق كل هذه الصحبة الطويلة التي استمرت ما بيننا أربعين سنة، والتي هي بالاخوة أشبه، ثارت بي وتمردت على هذا الاشتراك في الجرم. وفي الحق أن صمتي لا يمكن أن يوصف بأقل من ذلك. فلو فرضنا أن العاشقين اقترافا إثماً أو أتيا منكرا (ونزهتهما الحمقاء في البستان تبرر ذلك وتؤيده) فهل أجد الجرأة على أن أقول لشارل: (لقد كنت اعلم كل شئ من قبل؟... لئن جبهته بذلك القول ألا يسخط لأني لم أنذره من قبل؟ ولكن كيف لي بإنذاره وإعلامه؟ أفي الممكن الوشاية بامرأة؟ أمن اللائق والذوق فضحها وإشهار أمرها؟ كان لزاما على إعلام صديقي شارل

برسالة عن كل شئ ولكن أليس يجدر بقلمي أن ينكسر بدلا من كتابته ما فاجأت به امرأته؟ وأخيراً أبي حاجة إلى أن أزيدك كلمة على ما ذكرت؟... وأظنك الآن فهمت لماذا يثير هذا الفندق الذي أمضيت فيه تلك الأمسية فريسة لتقريع الضمير، ذكرى أليمة لا تطيقها نفسي أبدا. إن نجرد شعوري بأن الخيانة وقعت على بضع خطوات مني، وأن ماري كانت بين ذراعي حبيبها، في غرفة ربما تكون ملاصقة لحجرتي كان يضيف إلى هذا الاضطراب النفسي عذابا جسيما كاد يطغى فيتحول إلى آلام لا تحتمل.

وفي الصباح صحت عزيمتي، على الكتمان. لا أبداً لن افضح امرأة صديقي، ولن يعلم صاحبي عن خيانتها شيئا: فما هو أول زوج ولا أخر زوج تخونه زوجته، ويعيش مع ذلك هادئا قريرا شارل صديقي، يذهب في حب امرأته أنزه المذاهب وأقربها من التقديس، لذلك سيكون في اطلاعه على خزيها وشنارها. وضع للسلاح في يده ليقبل نفسه به. فمن الخير إذا أن يجهل الأمر كل الجهل أما فيما يتصل بي، فإني أرجو أن أتناسى مشهد هذه المصادفة الغريبة، ولا سيما أن (مرغريت) لم تراني

أبداً وتجهل اطلاعي على أمرها وسوف تجهله إلى الأبد. فمن الحتم على أن ارحل بقطار معاكس لقطارها يبرح (جه ن) في نفس الساعة. ولقد عولت على تأخير ذهابي إلى المحطة كيلا أتعرض لملاقاتها هناك برغم تحقيقي من أنها ستأتي المحطة بمفردها، فليس من الجائز أن تكرر مخاطرة الأمس الحمقاء فتبرز للملأ مع عشيقها على إني لم اقدر نشوة الخطر الخبيثة التي تدفع بالمحبين إلى أن يقتحموا كل خطر مهما كان نوعه أو زمنه. ذلك أن في المرأة التي تستهيم بصاحبها وتتدله بهواه فتهبه سرا جسمها وقلبها شهوة طاغية للظهور في ملأ من الناس، مستندة إليه معقودة الذراع بذراعه، كأنها تبغي الإعلان للناس عن أنها امرأته الشرعية؛ ترى لماذا تفعل هذا؟ إني لا أستطيع لذلك تفسيرا ولكنه يقع غالبا. والمآسي العرضية التي تقوض سعادة الأسر بنسبة 99 في المائة ليس له من سبب إلا ما ذكرت. مع أن شدة الحذر واليقظة من الزوج كافية لمنع حدوثها. واحسن مثال على ذلك واقعة صديقي، على إني في تلك الليلة المؤرقة خرجت باكرا من الفندق وفي نيتي إلا ارجع إليه إلا متأخراً حين أكون مرغريت قد غادرته إلى المحطة، فبعد أن جلست فترة في المدينة ذهبت في الساعة العاشرة إلى زيارة

(القصر الأحمر) (باله روج) لمشاهدة لوحات الفنان (فانديك) وادع لك أن تحكم على مقدار ذهولي ودهشتي حين طرق مسمعي مجددا، في صالة هادئة من صالات ذلك المتحف، جرس الصوت نفسه الذي هزني وزغرني البارحة مساء تحت أشجار البستان. لقد كانت هي نفسها هناك نعم وبرغم تخوفي واحتسابي من ملاقاتها ولو بمفردها. حبذا لو كانت حقا وحدها! ذلك أن صوتا كان يحاورها، هو صوت رفيقها في أمسية البارحة. وكنت أمام لوحة المركيزة (باؤل) المشهورة. الاتذكرها؟ أنها تمشك بكفها البيضاء قرنفلة حمراء وترتدي فستانا اخضرا غامقا كان العاشقان يدنوان مني شيئا فشيئا. كنت أحس ذلك من وضوح حديثهما بالتدريج في اذني، فهما يتخاطبان بصيغة الجمع وكان هذا التحفظ القليل منهما تنبيها لمن عساه أن يسمعهما أو يعرفهما من الأصدقاء والمعارف. عند ذاك يكون في مقدورهما تبرير نزهتهما المنفردة مع بعضهما بانتحال مصادفة ملاقاتهما في بهو المتحف، وسكتا فى حين غرة ولكني بفضل حاسة السمع اليقظة التي ترهف في مثل هذه اللحظات، ميزت وسوسة هامسة فيما بينهما لقد خافا فجأة من صوتهما لان ماري أبصرتني ولا ريب عندي في أنها أسرت

حينذاك لعشيقها هذه الكلمات المخيفة الهائلة لديها (صديق لزوجي) ومع ذلك لم تغادر الصالة بل كانت خطواتهما تقترب قيلا قليلا مني ووقعهما على بلاط الصالة يجعل صمت الأصوات أكثر وضوحا وجلاء. هناك تساءلت وعيناي مثبتتان في اللوحة وذراعاي معقودتان إلى صدري في متأملة غارقة: أليس الأولى بي الزوغان عنها وتجنب محنة ملاقاتها المربكة؟؟

ليس من المعقول على أي حال استمراري هكذا جامدا دون حراك، لأني بذلك أتخذ هيئة من يراها فعلا، ويتظاهر بعدم رؤيتها، وتلك وقاحة بلا مراء ذلك أن عدم إرادتي النظر إليها هو الإقرار بأنها تصاحب رفيقا أما إذا حييتها فلسوف أفسح لها المجال لكي تشرح موقفها وتتلل بعذر من واجبي التظاهر بتصديقه ومع إني فكرت وقدرت كل هذه الحلول لوقفي فإني لم ارم مكاني. ووقف الحبيبان أخيراً ورائي. لا جرم أن المرأة كانت تتساءل عما إذا كنت امثل دورا. وعلى أي حال لم ترد أن تكون هي البادئة بالاقتراب مني غير أنها اجترأت أخيرا اجتراء المرأة التي تبغي حمايتها هنائها فجهرت بصوتها لكي تضطرني إلى الالتفات إليها قالت لصاحبها:

- انك لعلى حق يا سيدي فهذه الصورة من أروع وأبدع الصور في الرواق كله، ولن أنسى لك جميل تعريفي بها وإظهاري على جمالها. وإني لجد سعيدة بالمعاونة الطيبة التي جمعتني بك، وأمل أن ألقاك في باريس. . أما الآن فينبغي لي أن أعود سريعة إلى المحطة كي لا يفوت موعد القطار. لقد كان من المحال إلا اسمع صوتها، ولكني أم أتحرك حركة ولم انقل قدما ولم أكلمها كلمة. فترددت (مرغريت) لحظة ثم ابتعدت وكأنها هي أيضاً لم تبصرني (مع أن خطابها المرتفع لم يكن موجها إلا إليّ) واقتفى الفتى أثرها بعد بضع لحظات كنت أثناءها ما أزال على هيئة استغراقي الذاهل غير المعقول في صورة (لادام) للرسام (فانديك) ولما ابتعدت خطوات حبيب مدان رددتيه عن الصالة واستأنفت سيري المعتاد انتابتني نوبة من الندم والألم من الصعب وصفها: إني بتظاهري عدم مشاهدة مارغريت عرفتها بجلاء بهائها ودللتها على جرمها. ولا ريب في أن أول عمل سيقوم به الفتى حين رجوعه إلى الفندق هو مراجعة قائمة النازلين فيه. وماذا بعد عثورهما على اسمي إلا أن يستخلصا أمر اكتشافي وجودهما في هذا الفندق! أن عدم التفاتي إليهما في صالة (القصر الأحمر) يعني إني لم أجد في مرافقتهما مفاجأة

غريبة، وإلا كانت المباغتة دفعتني إلى بعض الحركات والإشارات وإذا فالنتيجة المنطقية هي: إني لا أستطيع أبداً الاستمرار في تظاهري أمام امرأة (شارل) إني اجهل علاقتها بعشيقها. هي تعلم إني ادري لها عشيقا وهي تدرك إني اعلم من هو جيدا ليت شعري كم ضيقة هي المسافة التي تفصل الواحد منا عن الآخر في العالم. . لقد كنت أشفق كل الإشفاق من اشتراكي في الإثم، وإذا بي الآن احشر نفسي فيه حشرا. والمجرم حين يستوثق من معرفتنا بجرمه ومن حمايتنا إياه بسكوتنا عنه، له كان الحق أن يعتبرنا متواطئين معه على الجرم لقد كان الحزم والحكمة يقضيان على أن اشترك (في الملهاة) التي دعتني إليها جملتها. فلو كنت ملتفتا إليها ببساطة، لقلت لها: أهي أنت يا مدام؟؟ حينئذ كانت تعرفني بصاحبها معلنة مصادفته في (جه ن) ولكانت أنبأت بصاحبها بذلك زوجها بكتاب كما كان في مقدوري أن اكتب أنا إليه أيضاً على حين أنها ملزمة بالسكوت أمام زوجها كيلا يناقض قولها ما لعلني أتحدث به أنا إليه (هذا إذا كان في عزمي أن أتكلم) لسوف تسمم هذه الرعونة التي ارتكبتها انا، علاقتنا إلى الأبد فهذا الحزم في غير موضعه مني هو أشد شئ يدعو إلى الاتهام. لهذا كان من اثر هذا الموقف الخاطئ. أن بات

من المحال على الرد على كتاب صديقي شارل،طيلة الأيام التي استغرقتها سياحتي. ولعلها المرة الأولى منذ طفولتنا التي لبثت فيها مدى أسبوعين دون إثباته بصحتي وأخباري أو أنبائه عن صحته وأخباره. وحين حللت باريس بقيت أسبوعين أيضاً دون أن أكلف نفسي زيارته مع ثقتي بان ذلك التغيب هو اشد مخالفة للصواب من مسلكي في رواق (القصر الأحمر) فليس من المعقول أن لا يندهش شارل من انقطاعي عن زيارته، فلا يستفسرني عن الأسباب التي كنت مصمما على كتمانها عنه، وإذاً فأي معنى لتأخري عن زيارته!

كل هذا كنت أعلله واستخلصه ولكن التفكير في إني سأشترك في قذف افحش شتيمة يمكن لرجل أن يتعرض لها في عرضه كانت تثني خطاي إلى أن كنت ذات يوم في منزلي أفكر في الوقت الذي يجب فيه استئناف علاقاتي مع أسرة (شارل) وإذا بخادمي ينبئني بان سيدة ترغب في لقائي فأمرته أن يدلها. وإذا بي ابصر (مرغريت روية) تدخل غرفة الاستقبال وكانت أول كلمة لقيتني بها (إني هالكة) ولم تزد عليها شرحا واو تفسيرا. ثم انفجرت كالمجنونة قائلة: المصادفة وضعت سري بين يديك، وأنا اعلم انك لم تش بي إلى (شارل) وبسبب هذا

وحده كان انقطاعك عن زيارتنا. ولكن بين جنبيك قلبا نبيلا، يرثى لحال امرأة تعسة.. أعيد عليك القول باني من الهالكات.. نعم وإني حامل... لم تكن الشقية تطلب مني الاشتراك السلبي في الآثم فحسب، بل الاشتراك الإيجابي أيضا. فلقد عادت من إيطاليا منذ ثلاثة أيام موقنة من أنها حامل لشهر... وينبغي لي إضافة ما أقرت به أيضاً خلال العبرات والشهقات، قالت: أنها من حين تعلقها بصاحبها أخذت تنتحل الأعذار باختلال صحتها كي تعيش بعيدة عن زوجها. ولقد تهددتها هذه الأمومة اللائمة في الوقت الذي كنت فيه أنا صديق بعلها الوفي وخله الأمين، هناك في النزل ولماذا؟ لكي اكتفى فقط بما رايته وسمعته.... أما هي فقد فكرت بالفرار مع عشيقها، وحاولت أن تسلكه في طريقها بأساليب شتى، لم تزدها كلها إلا معرفة بالعواطف الكاذبة التي يكنها لها ذلك الرجل حتى الانتحار فكرت فيه، لولا أن غريزة صون الحياة ردتها عن فكرتها لأجل هذا جاءت إلى في نوبة من نوبات هواجسها وهذيانها تستجدي عطفي وتستنجد رحمتي.

ماذا؟.. آه! ما أوهي ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن الجريمة؟ لقد أتت تبتهل إلى أن أرافقها إلى طبيب لستعطفه

وتتوسل إليه لماذا؟ بمساعدتها في الإجهاض... أراني محتاجا إلى أن أحدثك عن جوابي ونصيحتي لها ورجائي أن تحفظ شبابها وتبقى على ذلك الطفل الذي تحمله في أحشائها؟! لقد سمعتني اردد في إلحاح:

- الأولى بك أن كنت ترجين لأمرك خلاصا أن تعترفي (لشارل) بكل ما حدث... وبهذا تحتفظين بطفلك وثروتك وتجدين الوسيلة إلى طلاقك ذلك خير من تحمل جريرة القتل وبينما كنت أكلمها هكذا، كانت إمارات الهدوء تعاودها قليلا قليلا فانسحبت من عندي بعد إذ أعطتني ثقتها من أنها لن تقترف جريمة الانتحار ولا قتل طفلها. وفي الغد وضعت حدا لترددي في الذهاب إلى منزل (شارل) صديقي. فلم تحن الساعة العاشرة حتى كنت عنده، بعد وثوقي من لقائه في ذلك الوقت لقد أشعرني استقباله لي بأنه كان فارغ البال من المأساة الأليمة التي كان منزله لها مسرحاً قال لي بلهجة المعاتب وهيئة المداعب.

- إنك لا تستأهل مني أن أعرفك بعد الآن ما معنى هذا التصرف الغريب؟ أن (مرغريت) لم تعد من هناك بل أبت من (إيطاليا) مبتهجة بسياحتها...

ولكن قل لي بحقك، ما الذي حدث لك أنت؟؟ أظنها مغامرة غرامية جديدة. لعمري أليس في نيتك الاستقرار والانتظام في حياتك...

ومع ذلك فالسعادة في الزواج... نعم وكل السرور والنعيم فيه، ثق بذلك وصدقني يا صاحبي. أما أنا فلن أعيد عليك الأسباب التي ادعيتها لذل الزواج المخدوع تبريرا لسكوتي وغيابي عنه... وفي مساء ذلك اليوم كنت أتعشى معه بجانب امرأته، التي كان في وجهها الساكن الجامد ما ينم على أنها نسيت تماما نوبة الألم التي جازتها وهول الخطر الذي كان يتهددها... على إني فهمت أي حل حلت به عقدة هذه المشكلة المؤسية... وذلك إني كنت عند صديقي (شارل) بعد شهر من زيارتي الأولى، وكنا ندخن منفردين حين بدرني قائلا:

- أني لجد مغتبط يا صديقي: لقد كاد حلمي أن يتحقق فأنا أمل بعد مدة أن أغدو أبا... لوليد ستكون لا شك أنت (إشبينه)...

لم تكد تمضي على هذا ثمانية شهور، حتى ولد ذلك الطفل الذي اخبرني ابوه (المدعي) عن زنته لبالغة. فقال في كبرياء وافتخار لم يخطر لي وفتئت أن أسخر منهما.

- نعم يا صديقي، انه يزيد كيلو غراما عن وزن الطفل. العادي ثم إنه ولد قبل الميعاد المنتظر لولادة الأجنة. . . ستة شهور ونصف فقط. . . أليس ذلك عجيبا!؟ لقد تملكني الخوف منه بادئ الامر، ولكن الطبيب طمأنني وهو طبيب من النوع الممتاز عرفت (مرغريت) عنوانه على سبيل الصدفة بواسطة إحدى صويحباتها لدن عودتها من (إيطاليا). . . (واحفظ عني يا صديقي. . . لقد تألمت المسكينة بالوضع اشد الألم، حتى إني لم أمل أن اصبح أباً. . . بيد أن ذلك لم يكن له كبير خطر لان الطبيب عرف كيف يعتني بها الاعتناء المطلوب. . . وبينما كان شارل يفضي إلى بسعادته الكاذبة، كنت أذوب خجلا وأملاً في نفسي. وفي الواقع لم اكن واحدا من أولئك الذين ائتمروا به حتى يثبتوا في ذهنه الوهم الفاحش الخادع الذي سيعيش ويموت على لضلاله وبطلانه؟

على إني علمت من ذلك أن مرغريت حين بارحت منزلي، ذهبت فورها إلى طبيب من الأطباء وعرضت عليه عملية الإجهاض، ولكن الطبيب نصح إلى (زبونته) المرتاعة بالعودة إلى زوجها، وبأن تزن نفسها حين تقترب ولادتها بإقناعه بتاريخ لحملها منه. . . يكون. . بعد ذلك مقاربا للحقيقة أكنت على حق

أم في ضلال بعيد لعدم إفشائي الحقيقة في حينها؟؟ أمصيباً كنت أنا بالسكوت أم مخطئا؟ إني وقد تعاقبت على هذه الحادثة سنون عدة ما افتأ أتساءل وأقاول نفسي بكل هذه الأسئلة. ولكن دون أن اظفر لها بجواب. . . ترى هل أصبت أم أخطأت بغمسي في ماء (التعميد) لذلك الطفل الذي أنا اعرف الناس بابيه؟! لم تمض خمسة شهور على ولادته حتى وجدت أمه الوسيلة إلى إفساد ما بيني وبين زوجها الذي لم أجر أنا منع نزعي معه، لان التردد على ذلك المنزل كان يسبب لي كثيرا من الغصص والندامة.

ولعلّك تفهم جيدا علة عدم مرافقتي لك إلى ذلك المنزل في (جه ن). أمن اللازم اعترافي أنا الآخر بان عدم حلولي في ذلك الفندق مراعاة لشعور صديقي رايموند؟. . . ومع ذاك لم انفك أسائل نفسي منذ ذلك الحين، ترى ما عساني كنت فاعلا لو أني مكانه؟! تجاه صديق صدوق، يعد الصمت عن مثل هذه الجريمة جريمة ابلغ وأنكر كما يعد إفشاؤها فظاعة ما بعدها من فظاعة.

وفي هذا، ما يبرهن على انه يجعل أحياناً أن يجهل المرء أسرار غيره أن من أمن شئ واسلم عاقبة في هذه الحياة الدنيا، أن تغمض عينك فلا ترى وتسد أذنك فلا تسمع شيئا عن مثالب ونقائض الآخرين ذلك السبيل الأوحد كي يظل الإنسان على خالص طهره ونقائه ولكن هل ذلك مستطاع؟

اشترك في الجريمة

. . . قابلت. . إدم ريمون - على إفريز محطة ميلان بينا كنت أصعد في أحد هذه القطارات التي يصفها الإيطاليون في زهو (بالبرق) مع إنك تجد نفسك متأخراً ساعتين في مسافة قدر زمانها خمس ساعات. . . وكيف تحرن؟ إنك إن شكوت أجابوك وقد جرت على شفاهم ابتسامة آسرة قائلين. (إنه القدر الإيطالي) أيسخرون من أنفسهم أم يسخرون منك. . وإنك لتغفر (للبرق) هذا الوقوف الذي لا يكاد ينتهي عند كل محطة انتظارا للبريد الذي لا يصل أبداً. . . ومرة أخرى فيم الحزن إذا كان كل الناس يحضرون ليشاهدوا (لويعي دي لا بريرا) الإلهية. . . وإذا كانوا يتهيئون من غدهم لزيارة. . . (القصر الأحمر) و (القصر الأبيض) في جنوا. . .

وكانت جنوا وجهتي حينما التقيت بادم ريمون وكان ماضياً إليها أيضاً!. . . وسألني قائلا:

- أتريد أن نقطع رحلة سوياً؟

أجبته وأنا ادفعه في رفق أمامي إلى الصالون:

- بكل سرور. . .

ولم أكن مخلصاً في قولتي هذه... وما ذاك لأن طبع ريمون يباين طبعي... فهو شاب لطيف للغاية وإن كان متكلماً هوناً ما وهو رفيق صادق الود فما كان يربطنا في صداقتنا التي أوفت على العشرين عاماً سوى أنبل الصلات وأطيبها.. وهو بعيد الأفق غزير العلم.. جم الثقافة... سمحت له ثروته بالتنقل والسفر... ولكنه إلى ذلك... كان ثرثارا... وإننا لندرك بدهياً آراء هذا النمط من الناس... في الأشياء التي هي مدار الحديث في الصالونات المنتشرة حول قوس النصر..

وبالأمس أطروا قصصي تولستوي وأينزيو... واليوم يشهرون نحت (دودان) وتصاوير ببزنار.. وغداً من يدري؟. ولكنني عرفت منذ عهد بعيد كيف أميز في ثرثرات هذا الطراز من الناس الآراء التي ليست سوى الصدى الحاكي لآراء الغير... والقصص التي يمكن أن تكون أصيلة. وقد مضى على قصة من هذا القبل الأخير... أريد أن أقصها بدوري.. وهي تنتمي إلى مجموعة (حالات الضمير).. وطبقا لما قرر باسكال (إن لذة الحياة في هذه الوخزات وفي التماس الحلول لها...

قص على رفيقي هذه القصة... وقطارنا يقطع الطريق من (نوفي) إلى (سامبرد أرينا) وكنا قد تناقلنا طائفة من الآراء عندما بدهني بهذا السؤال:

- أين تقيم في جنوا؟

فعينت له فندقاً في ظاهر المدينة كنت أوثره على غيره لحديقته الرجيبة... أجابني بقوله:

- لسوف نفترق إذن... فإن هذا الفندق يرتبط في ذهني بذكرى مؤلمة جداً... وإني ليتلبسني اعتقاد باطل عسى بأن يجعلني أعزف عن الأماكن التي وقع فيها حادث مؤلم... حادث؟... إن الكلمة ضخمة... ومع هذا؟...

وانقضت فترة ثم استتلى:

أود أن أعرف ماذا كنت خليقا أن تصنع لو أنك كنت في مكاني؟... وسأتبدل بالأسماء الأصلية أسماء من عندي... هذا فضلا عن أنك لا تعرف أصلا أصحابها.!

... وأنشأ يسرد عليّ قصته فقال:

- كان ذلك منذ خمس سنوات... في زورتي الأولى لجنوا. .. وكنت حللت بهذا الفندق لنفس السبب الذي يدعوك إلى النزول فيه. وكنت قد زرت في نهاري القصور والكنائس وكل ما

هو جدير بالزيارة في جنوا... وفي المساء بينما كنت جالساً في إحدى خمائل الفندق المذكور أقيد ملاحظاتي على انفعالاتي في يومي... إذ أرعدتني جلجلة صوت على قيد خطوات مني صادرة من الممشى الذي كانت تفصلني عنه شجرة فرعاء...

كانت ثمة امرأة تتكلم... حادسة أنه ليس من ينصت إليها... وكان ثمة رجل يمشي إلى جوارها.

وكانت العبارة التي انفرجت عنها شفتاها جداً مبتذلة توحي بأنها في ميعه الصبا وغضارة الشباب قالت:

- آه يا حبيبي العزيز... لم أكن أحلم بهذا... أن أكون هنا معك... أمام هذا البحر..

وتحت هذه السماء... وهذه الساعات اللطيفة في انتظارنا.. ثماني عشرة ساعة إذا استقل القطار عند الظهيرة!

أجابها قائلا:

- وكذلك أنا... لم أكن آما أن تعدي حرة طليقة... ولكن فلنتنقل... ولنعد إلى الفندق... فالجناح أمين... ولست آمل أن يقابلنا هنا أحد!...

تساءلت قائلة:

- ومن إذن؟... أنه لأمر جميل للغاية أن أستأنف هذا الهواء... وأني أشهد غروب الشمس معك

قال:

- إنني أوثر مع ذلك أن أنفذ للفور فكرتي... وأن أتحقق من ثبت النزلاء حالما أصل إلى الفندق.

قالت في نبرة يكسوها العتاب الرقيق:

- أتأسف أن أنتهب هذه الدقائق الخمس... أوه... لو أنك خليص في حبك لي... لما تعلقت هكذا

قال ولكن يا حبيبي أنه من جراك أن أتحامى المضايقات بأي ثمن!.

تأوهت قائلة: ليكن ما يكون... سأكون جداً سعيدة حتى ليتساوى عندي كل شيء... أتسمع... كل شيء...

... وجازا بي دون أن يثبتاني... والآن لتحكم على طبيعة انفعالي ومداه. إذ عرفت في هذه العاشقة الهلوك - التي لم تقو على أن تتمالك نفسها من أن تصيت هكذا بسعادتها - زوج صديق من أعز أصدقائي على نفسي... وأقربهم إلى قلبي.. وسأدعوه لسياق قصتي (شارل روتيه) وسأدعو زوجه

(مرجريت) أما الشريك في هذه المقابلة التي نمت في هذا الفندق السادر في جنوا فكان مجهولا لي!.

ولتعلم كذلك أنني كنت ذهبت في صبيحة هذا اليوم إلى دار البريد طلباً لبريدي... فألفيت هناك رسالة من روتيه نفسها عليها خاتم بريد باريس - وذكر لي روتيه في رسالته أن ابنة عم لزوجه دعتها إلى رحلة قصير غايتها خمسة عشر يوماً تقضيها ترويحاً عن النفس في فلورنسا وروما... وسمى لي إبنة العم هذه عرفاناً بالصنيع الجميل والسرور الذي أدخلته إلى قلب عزيزته مرجريت ... ولم يكن آل روتيه من السراة... بل كان شارل في مستهل حياته العملية كمحام... وقد أحرز نجاحاً... وأصاب صيتاً منذ عهد غير بعيد... وكانت إبنة العم على النقيض من ذلك... كانت تحصل على ربح يقدر بمائة ألف فرنك عرفت ذلك لأنني شهدت زواج شارك بوصفي شاهداً ثانيا... وكانت ابنة العم هذه هي نفسها التي منحتها في موكب الزفاف زراعي... مضى على ذلك الآن خمس سنوات... خمس سنوات صغيرة!...

. . . وكان العشيقان قد آبا منذ حين إلى فندق. . . ولا جرم أنها تناولا سوياً طعام العشاء في هذه المؤانسة الخطرة المسكرة. . .

ولو لم يكن روتيه صديقي الحميم لاستشعرت له الصخرية بديلا من الحزن. . . إذ أذكر الانهيار المريع لهذا الزوج البكر. . . على أن مجرد المفارقة بين مراسيم الزواج التي طافت ذكراها بذهني. وبين هذه المقابلة أفعمت نفسي بمرارة فذة! ولكن روتيه كان صديقي. . . وكان مسهبا بهذه السيدة التي بنت به على معارضة هينة من ذويها. . . وكنت أعرف أنه يكد ويكدح من أجلها. . . ومن أجل إسعادها. . . وأنه بعد إذ لم تنجب له طفلا بات ينتظره مقدمه في شغف وتطلع. . . تدبر هذا كله. . . تلم بالحصر والضيق اللذين دفع بي إليهما هذا الاكتشاف الفجائي!. . .

كانت هذه المرأة الزنبة تخون صديقي. . . فكم من الوقت استغرقته هذه الخيانة؟. . . وفي أي مكان التقت بهذا الفتى الذي لم أذكر أبداً أنني أثبته لديهم؟. وما الدور الذي لعبته ابنة العم؟. أكانت على اتفاق مع مرجريت أم أن هذه الأخيرة عرفت كيف تجد الوسيلة إلى مغافلتها كما غافلت

شارل؟. وهل كان هذا هو اللقاء الأول للعاشقين أم قد سبقته لقاءات؟. ومن يدرينا أن هذا الطفل الذي كان صديقي يرقب بانفعال الأبوة الملهوفة مقدمه لم تتكون جرثومته هنا. في هذا الفندق أراه من خلل الأشجار الباسقة؟

فرضت هذه الأسئلة نفسها جملة على نفسي وتركزت في السؤال التالي؟.

- ما هو واجبي؟.

هناك حكمة هندية تعرفها أنت كما أعرفها أنا... تقول (لا ينبغي ألا تضرب المرأة ولا بزهرة). وفكرة البطولة التي تحويها الحكمة مطبوعة في أعمق كياننا بفضل وراثة عريقة... ومتأثراً بهذه الحكمة الغالية تساءلت قائلا:

- أواجبي أن أصمت... أن أصمت؟...

... وفي تأملاتي المطرقة رأيت شارل روتيه كما رأيته دواماً مذنبي بمرجريت... منحنياً فوق أكداس القضايا... فيتلقاني في مكتبه بهذه الكلمات...

- لقد تضاعف عملي فما أستطيع أن أنهض لمصافحتك... وتضاعفت كذلك ثروتنا الضيئلة... فقط لو كان ثمة في تبذل من أجله هذه الجهود...

ثم يبدي لي صفحة... غضتها التعب والأين وقد شاعت فيها ابتسامة سعيدة!...

هكذا بينا كان يجهد نفسه ويبهظ أعصابه في العمل ليحقق الترف لزوجه كانت هذه تعبث مع سواه!.

وتبدد النقود في الأصباغ لتتراءى جميلة في عين آخر!. هذه النقود التي اكتسبها بالعرق زوجها الكادح!. وأنا بعد الذي سمعته هل أسمح أن يستمر استغلال امرأة عابثة لهذا الزوج الشريف النبيل.؟... أأصمت. لئن فعلت ذلك لعد أشتراكاً في الجريمة!. وانثالت دفعة واحدة على ذهني ذكريات صداقتي الطويلة لشارل منذ إن كان صبياً في العاشرة إلى أن تخرجنا سوياً في كلية الحقوق!. هذه الزمالة والأخوة اللتان تربوان على ربع قرن ثارتا في كياني ضد هذا التواطؤ في الصمت لأنالصمت.. معناه مساهمة في الجريمة... إذا ماذا لو علم شارل بخيانة مرجريت ثم أنبأني بهذه الخيانة؟ هل أجيبه إذ ذاك بقولي:

- إني أعرف كل شيء...! وإذا كان هو جوابي... أما يغضب مني لأني لم أنبهه... أنبهه؟... أأشي بامرأة... أهذا ممكن؟...

وبدا لي أن أكتب لصديقي. . . ولكن يتحطم القلم خير من أن يخط قصة خيانة الزوجة. . .؟ ولكن شعوري بأن الخيانة وقد كانت على قيد خطوات مني!. . . وفي اللحظة ذاتها التي كانت فيها مرجريت بين ذراعي عشيقها. . . ربما في حجرة مجاورة لحجرتي أضاف هذا إلى العراك الخلفي المحتدم في نفسي رعباً جثمانياً أوفى في على العذاب!. . .

وفي الصباح كان قد استقر رأيي على الصمت. . .! ولن أشي بمرجريت ولم يعلم شارك شيئاً وسوف لا يكون في ذلك أول الأزواج المخدعون ولا آخرهم. . . إنه يتعبدها حباً ومعنى اطلاعي إياه على فاحشتها أنني أضع في قبضته سلاح الانتحار فالخير إذن في أن يظل جاهلا كل شيء. . . أما عن نفسي فقد أملت أن أنسى هذا الاكتشاف الذي ساقه إلى الاتفاق العجيب!. . . إن مرجريت روتيه لم ترني وهي تجهل أنني أعلم سرها وسوف تظل على جهلها أبداً.! وطبقاً لما قالته في ممشى الحديقة فإنها ستستقل قطار الظهر وإذ كان مفروضاً أن أستقل بدوري قطاراً في اتجاه مضاد فيما يقرب من موعد سفرها فقد أجمعت أمري على أن أرجئ رحيلي حتى لا أخاطر بمقابلتها. . .؟

غادرت الفندق في وقت مبكر جداً بعد هذه الليلة التي قضيتها وأنا مسهد أرق وقد حزمت رأيي على ألا أعود إلا في ساعة متأخرة عندما تكون مرجريت قد زايلت الفندق إلى المحطة ذلك أني آثرت ألا أراها!. وبعد أن مضيت على وجهي في طرقات المدينة دون قصد أو غاية أفضي بي المسير إلى (القصر الأحمر) فرأيت أن ألجه لأرى من جديد صور (فان ديك)... ولك أن تحكم على انفعالي إذ تهادى إلى أذني من جديد في إحدى القاعات الهائلة لهذا المتحف المهجور الصوت الذي أقلقني أمس تحت أشجار الحديقة... كانت مرجريت هناك... وكانت تسأل فيجيبها صوت عرفت فيه صوت رفيق الليلة الماضية... وكنت لحظتئذ أتأمل صورة المركيزة باولا الشهيرة. وأحسست بهما يتهامسان... وفجأة سمعت وشوشة أعقبها تغيير في لهجة الخطاب ومجرى الحديث!. ذلك أن مرجريت رأتني وعرفتني... وليس شك في أنها أسرت لعاشقها هذه الكلمات:

- صديق لزوجي!

أكان ينبغي أن أعود أم كان ينبغي أن أحييها فأهبها بذلك فرصة تلمس المعاذير؟ وهنا أيضاً نزلت عند حكم

السداد والحجا فتظاهرت بأني لم أحس وجودهما. وتلومت أتأمل الصورة وظهري إليهما. . . وبعد فقد انساب إلى صوت السيدة التعسة وهي تعلق على الصورة بكلام قصد إيهامي بأنها التقت بصاحبها في المتحف عرضاً. . . ثم كان أن زايد المكان سريعاً ورفيقها في إثرها!

وحاصل القول فإنني حينما تناءت عني خطوات مدام روتيه وخطوات صاحبها وشرعت أدرج في الطريق، رأيتني أقع فريسة لحالة وخز ضمير أتجاوز عن وصفها!. ذلك أنني

بتظاهري أني لم أر مرجريت أتحت لها أن تعلم كما لو كنت قد وجهت إليها القول صريحاً أنني أعتبرها مذنبة. وليس شك في أن أول عمل قام به الفتى عند عودته إلى الفندق أن راجع ثبت النزلاء واستجلى فيه اسمي عندئذ أدركا الحقيقة أدركا أنني لا مشاحة رأيتهما وهما يطرقن ممشى حديقة الفندق، ولهذا السبب فإنني لم أبد دهشة ما عندما رأيتها في دهليز (القصر الأحمر). . . أدركت زوجة شارل أنني عرفت لها خليلا. . . ولذلك فقد عراني رعب المشاركة في الجرم! على أنني لو كنت تقدمت منها وقلت:

أهذا أنت يا سيدتي؟... لقدمت إلى رفيقها زاعمة أنها ألقت إتقافاً به في جنوا ولكتبت إلى زوجها كما قد تظنني فاعلا!: ولكن الموقف يختلف الآن... إذ يبقى عليها أن تصمت تجاه شارل حتى لا يتعارض موقفها مع موقفي!.

وكان من أثر هذا الموقف أني بقيت أسبوعين دون أن أطلب من شارل أخباره أو أكتب له بأخباري وتلبثت كذلك أسبوعين عند عودتي إلى باريس فلم أقم بزيارته... وقد أدركت أن جفوتي هذه كانت عملا غير صواب كسلوكي في دهليز. القصر الأحمر)!

وفي يوم. بينما كنت في المنزل وحدي إذ أنباني خادم بأن سيدة تطلب مقابلتي فأذنت له باستقبالها. إذ ذاك اجتليت مرجريت روتيه بعينها تدلف إلى غرفة الاستقبال وبادرتني بقولها. لقد ضعت!

وأردفت فجأة كمعتوهة!

- إن الصدفة وضعت سري بين يديك فلم توش بي لدى شارل... وأعرف أنك صدفت عن زيارتنا لهذا السبب أيضا... ولكنك تحمل بين جنبك قلبا كبيرا وستشفق على إنسانة تعسة أكرر لك أنني ضعت.

وهكذا لم تعد بعد المشاركة السالبة في الجرم ما تطلبه الشقية مني. . . بل هي المشاركة الموجبة وكانت قد عادت من إيطاليا منذ أيام ثلاثة فحسب. . . وبآيات بينات أدركت أنها حامل لشهرها وينبغي أن أضيف إلى ما سلف أنها اعترفت لي أيضاً وهي تنشج بأنها منذ ظفرت بخليل وهي تتعلل باعتلال الصحة لتعيش بمنأى عن بعلها. وإذ أنذرتها هذه الأمومة بالخطر الداهم وكنت ثمة أنا الصديق الحميم الذي أكاد أن أكون لزوجها أخا لأقص ما شهدته عيناي وما سمعته أذناي فقد فكرت في الفرار مع حبيبها ثم عدلت به إلى الانتحار.

ولكن غريزة حب البقاء أطاحت بهذه الحافزة. وأخيرا لاذت بي في ارتباكها لأنني كنت محيطاً بسرها. وكما قالت لي لتتوسل بشفقتي إلى. إلى ماذا؟. آه. . . لقد رأيت إذ ذاك كم هو هش ورقيق وهو هش ورقيق هذا الحاجز الذي يفصلنا عن الجريمة! لقد فزعت إلى لأصحبها إلى طبيب لتسأله ماذا أيضا؟ مساعدة أثيمة ليوقف هذا الحم المفضوح.

أفي حاجة آنت لأن أقول كل بماذا أجبتها؟ لقد ضرعت إليها أن تعيش وألا تتعدى لا على أيامها. ولا على أيام الجنين الذي تحمله في أحشائها. . . وقلت لها في إصرار وعزم:

- أولى لك أن تعترفي لشارل بكل شيء... إنك لا محالة مثرية عنه وسيكون لديك ثروتك... وابنك ولن تعدمي سبيلا للطلاق وسوف تتخلى عنك هذه الوساوس الأبدية التي تلازمك كقاتلة. وأية قاتلة! وخرجت بعد أن أقسمت لي أنها لن تقدم لا على الانتحار ولا على الإجهاض.

وفي اليوم التالي كان قد تبدد من نفس كل تردد أقعدني عن العودة إلى زيارة شارل. وألفيتني لديه في الساعة العاشرة. وقد برهن لي احتفاؤه السعيد بي على أنه يرتاب في شيء من المأساة التي كان بيته مسرحها. وفي المساء تناولت لديه طعام العشاء إلى جانب الزوجة التي أعادت إلى ذكريات ذلك اليوم المشئوم.

ودرج شهر آخر... وقال لي شارل بينما كنت أتناول العشاء لديه.

- إنني جد سعيد يا صديقي... إن حلمي القديم بسبيل أن يتحقق... وأملي كبير في أن أغدو أبا... وستكون أنت الإشبين.

وفي أقل من ثمانية أشهر كانت مرجريت قد وضعت له طفلا وقد أعلن له الوالد المزعوم الكارثة بزهو قائلا:

- أجل يا صديقي. لقد قبل الموعد المألوف. . . في سبعة اشهر ونصف، أنه لأمر عجيب. . . وقد ساورني الخوف والقلق. . . ولكن الطبيب طمأنني وقد ظفرت مرجريت بعنوانه من قبيل الصدفة من إحدى صاحباتها عند عودتها من إيطاليا! بيني وبينك. . . لقد قاست طويلا وفقدت الأمل في أن أغدو أبا. . . مرة أخرى. . . أنا جد سعيد!!

وإذ كان يتحدث إلى. . . كنت أشعر بالخور والخزي فقد أيقنت أن مرجريت روتيه حالما خرجت من عندي مضت إلى أحد الأطباء وحدثته برغبتها في الإجهاض، فنصحها بأن

تعود إلى زوجها. . . وتغريه! حتى إذا اقترب موعد الوضع أقنعته بقبول هذا التبكير فيه. . . وبعد فإن هذا أمر محتمل!

أكنت مصيباً أم مخطئاً أنني عدوت وجه الصواب في تراخي عن الحديث؟ أكنت مصيباً أم مخطئاً في صمتي الآن؟ أكنت مصيباً أم مخطئاً عندما أمسكت الطفل على جرن المعمودية. . . هذا الطفل الذي كنت أعلم حقيقة أبوته؟

. . . ومهما يكن من شيء فقد وجدت أمه في اقل من ستة أشهر من مولده الوسيلة للإيقاع بيني وبين شارل. . . ولم

أحاول من جانبي أن أحول دون هذه الوقيعة لأن اختلافي إلى هذا المنزل كان قد غدا أمراً شاقاً على نفسي!

وأظنك عرفت الآن لم لن أرافقك إلى فندق (. .) في جنوا. . .

أينبغي أن أعترف بدوري بأنني مشاركة مني في عواطفي لأدم ريمون لم أنزل هذه المرأة في فندق (. .). وطالما سألت نفسي ماذا كان ينبغي أن يكون سلوكي فيما لو كنت في مكانه كما طلب مني.؟ إن هذا الصمت بالقياس إلى صديق حميم لهو جريمة. . . والكلام أمر بالغ القساوة. . . هو هذا البرهان على أنه ينبغي دائماً أن نتجاهل بعض الأسرار! فإن ارشد جانب في الحياة أن يغمض الإنسان عينيه. . ويصم أذنيه حتى لا يدرك أخطاء الغير. . . هذه هي الطريقة الوحيدة كيما نعيش في الحياة نقيين وهي ليست بالطريقة السهلة دائما. . .

الابن

استيقظت مدام (ليجيه) في صبيحة هذا اليوم قلقة بادية الهموم والتفكير. فقد كان عليها أن تضع حدا لحياتها كأرملة في مقتبل العمر، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة. فلقد مضى على وفاة زوجها وهي إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان. وكانت وفاته بعلة ذات الجنب التي غالته وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة ومحل من قلوب الناس. ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هذا الصباح الذي تستفيق فيه مدام (ليجيه) حائرة مفكرة، اجترأ (جورج كولت) صديق بعلها المرحوم ومحام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها في دائرته لزوم الشريك وفي بيته لزوم الصاحب، اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع:

- إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهها ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذي غادرنا فيه صديقي العزيز زوجك، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك. وأظنك كنت تستشعرين مني هذا الصمت

الناطق وتحسين احترامي المراحل الفقيد وتقدرين رعايتي لك. فبسببك يا سيدتي (ومعذرة من اعترافي بهذه الحقيقة) قطعت كل صلة ترابطني بامرأة أخرى في هذه الحياة، وأنت كامرأة في ريق شبابها واكتمال أنوثتها، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفي حياة الزوجية السعيدة من جديد. وإذن فهل أستطيع أن آمل يا سيدتي أن تعتبريني الزوج المخلص الذي سيكون من أشهى أحلامه أن يضحي راحته وحياته لأجلك... إني أحبك... يا سيدتي، ولعلها المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك... أما أنت يا سيدتي فليس عندك إلا كلمة واحدة تقولينها في هذه اللحظة ستكون هي الأولى والأخيرة. ولكن بحقك لا تلفظيها إلا بعد تأمل في عاقبتها، فإن ما أجن لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استعجال واقتضاب.

قالت مدام (ليجيه) وصوتها راجف وطرفها خاشع:

- أتطلب مني استئنافاً لحياتي الزوجية معك؟ ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت (بلا)

أو (بنعم) وأخيراً جسرت فقالت:

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافها. إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً: هو السهر على أولادي، ولا أفهم إلا واجباً فرداً: هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة..

قال الصديق الخاطب:

- أولاً تشعرين أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبيهم صديقي الراحل...؟! ومن لعمري سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبيهم وصفيه؟ وهل غيري يعرف ميول صديقه وذوقه ومشربه في التربية والمسلك؟ وإذن فهل تسمحين يا سيدتي أن أشغل مكان الأب الراحل؟ أترضين أن تكوني امرأتي أمام الله والناس.

قالت الأرملة في حسرة وتلدد:

خلني الآن لشأني... هلا جنبتني الكلام في هذا الموضوع.؟! إنه ليؤلمني البحث فيه ويسبب لي كثيراً من الشجن والشجو.

لا أعرف شيئاً. ولا أفهم شيئاً. لست بمستطيعة أن ألمح في قرارة نفسي المظلمة عاطفة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأني أجهل نفسي... ولكني أعدك أن جوابي سيكون

بعد قليل من الزمن. . . أما الآن فلا أستطيع، أجل لا أستطيع. . فأجاب جورج فوكولت:

- سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين: إنك إلا تقولي (لا) هذه اللحظة فبحسبي، لأن ذلك معناه أنك قد تتبصرين خلال سجوف المستقبل الكلمة الحبيبة إلى قلبي وهي (نعم). إن التردد والتحير مؤلمان للقلب مزهقان للروح إذا لم يكن القلب المنتظر في شرخ شبابه. قال ذلك وأبان لها عن طرف لمته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك الشيب البيضاء. فأحست المرأة الأرملة وهي تتأمل وخطات الشيب في رأسه، وتنظر إلى أثر التأنيب الصامت من عينيه السوداوين: أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته في هذه الدنيا بمقياس ما بقى له من سنين فيها، وكأن نظرته كانت تقول لها، إن ما يطويه الشباب اللاهي من متع ومباهج لا ينشرها كفن المشيب مهما يمتد ويضف ثوبه. ثم يستأنف حديثه ويقول:

- إنه إحسان منك على أي حال أن تحددي لقلبي الشهيد موعداً للجواب كي أغادرك وأنا أقول لنفسي من يوم لآخر ستوافيني نعمة جوابها في يوم كذا. . (كاترين)، أيتها

العزيزة، اختاري بنفسك اليوم الموعود وعيني تاريخه، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك

وهواك... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أحنث فيه ولا أنحرف ألا أخوض في ذكر هذا الموضوع الذي سيكون برغم هذا هو شغلي الشاغل وهمي الناصب.. فحددي بعيشك موعد جوابك. وهنا تمتمت مدام (ليجيه) بصوت محتبس ولهجة ضارعة: سيكون ذلك حين ينتهي أجل حدادي على زوجي الراحل. وبما أنك تدعي حبي فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدي أنا. والآن أرجو ألا تلح علي في هذا الشأن فقد كفاني ما كفاني...

ثم يقول لها، وهو يود أن يوضح بالوقت المعين كل شك وغموض يمكن أن يعتور موعده المرجى: وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع في الرابع عشر من نيسان؟! فأجابت على هذا بإيماءة من رأسها ثم انعقد بينهما جو من الصمت...

لقد غالت يد الموت زوجها الحبيب في الرابع عشر من إبريل أي منذ اثنتين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذي يجالس فيه مدام (ليجيه) خطيبها المسيو جورج. كل ذلك جال

بذهن (مدام ليجيه) وظن الخاطب الصديق الذي شعر بثقل كلماته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد المضروب...

أن يستأنف المرء حياته دون أن يعوج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا ففي ذلك ويا للحسرة إساءة إلى ذكراهم الغابرة وعهودهم الماضية، وإذن فمن يغب عن الوجود تمت معه ذكراه وتنعدم ثم تبتلعه هوة العدم إلى غير رجعة، والهفتاء.

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام (ليجيه) فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية المتعاقبة...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة. ثم يرى من الظرف والكياسة أن يغادر (باريس) حين اقترب اليوم المضروب يوم 16 نيسان. أما مدام (ليجيه) فقد أخذت تتهيأ لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها. وقد أحيت هذه الذكرى في ذلك اليوم في شيء من البرود وعدم المبالاة لم تمتزج بهما إثارة من حنان ولا بقية من فجيعة وحسرة. وفي اليوم الثالث

عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هي نفسها.. وذلك حين رفعت رسالته إلى فمها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور.. وأخذت تردد: نعم.. نعم.. سيكون جوابي.. نعم. وإذن ففيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا؟.. ما الذي حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تقبيلها رسالة جورج نهار الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها وسادة سريرها الوثير يبدو عليها سهوم وتفكير؟ ما الذي طرأ عليها يا ترى فبدل عزمها؟!.. وأقبلت الخادم في هذه اللحظة فهصرت أستار الغرفة عن النوافذ والشبابيك فطغت على جوها موجة من نور لآلاء ضاحك غمر المكان كله؛ وكان المكان في شارع (فانو) تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية النمساوية الظليل. ولمعت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد العصافير إلى المسامع شجياً موسيقياً شعرت معه مدام (ليجيه) أن ثوب الجدة الذي تضفيه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذي تقفه هي من حياتها الجديدة هذا

اليـوم. . حتى أن الثـوب المـزركش الـذي حملتـه الخـادم منـذ لحظة كان يغريها بأخيلة وخطرات حافلة باللذة والسعادة. . ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويربد وجهها كلما نظرت إلى عقرب السـاعة ينتقـل مـن مكانـه. مالهـا تقـف حالمـة سـاهمة بـدل أن تنشط وتفرح؟. . أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول؟

حين تكلمت مدام ليجيه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شيء للصديق الخاطب، لم تعترف له أن ولدها البكر (شارل) ما فتئ منذ شهور مدعاة تخوفها. أبداً لم تبادل الابن مع أمه كلمة عن (جورج فوكولت) خاطبها الرغيب، وكان هذا الأخير لا يميز هذا الغلام اليافع في المخاطبة والحوار عن أخيه الصـغير (رنيـه) وأختـه الصـغيرة (هيلـين) اللـذين كـان يكلمهمـا بصيغة الإفراد دون كلمة. ولكن إذا شفعت سنو الطفل (رينه) الخمـس وأعـوام الطفلـة (هيلـين) العشـرة - لهـذه الصـيغة الافرادية يبدي فيها صديق أبيهما حبه وتدليله لهما، فإن الستة عشر عاماً التي يجتازها الغلام المراهق (شارل) كانت تقيم بينه وبين (جورج) الخاطب جواً مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الألفة والعطف وعدم الكلفة الانقباض والنفرة. ومع هذا فقد

كان الخاطب الواغليغضي عن هذا ويتجاهل، بل لقد أخذ في الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويبتغي الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الصامت.

وتلاحظ مدام (ليجيه) ذلك السلوك المحبب الجذاب الذي يعامل به الخاطب ولدها البكر فتغتبط به وتنشرح له.

ولكن رغم كل هذا كانت تترقب من ابنها رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابهما وتتهيأ لهما منذ أيام.

من هنا كانت حيرتها وقلقها في هذه الصبيحة الباسمة من نيسان التي كان عليها فيها أن تقول كلمتها الأخيرة في رفض يد (جورج) أو قبولها. ولهذا وحده هي تدير في ذهنها الصورة المستحبة الملائمة التي يمكنها بها أن تفاجأ ولدها دون أن تؤذيه أو تسوئه في عزة نفسه، فكانت تردد:

- كان علي أن أنبئه بذلك وأسبر غور رضاه أو رفضه منذ ستة أسابيع. . غير أني لم أستطع ذلك لأني اجدني أمامه مرتبكة مشلولة الإدارة كأني بحضرة أبيه الراحل. فيا لله كم يشبهه حتى كأنه صورته الثانية! وعلى كل حال فإن جورج أحسن في تحببه إليه وترضيه. . وذكر أسم جورج هكذا مراراً، ودل المرأة على أنها تنطوي له على حب وميل. .

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من العواطف والميول غير متكاملة ولا متكونة. ويكن ذلك ويا للأسف كان يزيد ألمها ويضاعف شجوها. . أجل إن جورج محق في قوله. فواجب على معاودة حياتي الزوجية، وأنا بهذا لا أنال شيئاً من زوجي الميت ولا أسوئه في كرامته. كذلك لا أفتات على أولادي الأحبة الذين تركني لهم، لأن جورج سيحبهم وسيحنو عليهم. والصغيران يحسان بهذا وبقدراته في سذاجة وطهارة. أما شارل ولدي الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر. آه لشد ما يحب إياه هذا الصغير! إنه لينمو ويتفتح للحياة يوما بعد يوم كأنما نتعهد نماءه معجزة من السماء.

هون الأول في فصله في مدرسة (سان لويس) وإنه يترقى بين رفقائه وزملائه بصورة غريبة سريعة كأنما وكن نفسه على أن يسد الفراغ الذي تركه أبوه من بعده، إن لم يكن قد قام في نفسه أكثر من هذا: أن يكون خليفة أبيه في البيت ورب الأسرة التي كان يحلم أن يكون حاميها وراعيها. فيا للقسوة والنكران! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب؟!

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة وأفكار المرأة ما زالت تضطرب في ساحة ذهنها جيئة وذهوبا. وفيما هي منصرفة إلى زينتها وترجيل شعرها وتعليق حليها وأقراطها، إذا طرقات على باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتعش نفسها أمامه كمجرم أمام قاضيه. وفي الحق لقد كان الداخل (شارل) الذي توقف على الباب لحظة كالمأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه. قالت له الأم مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثرا فجائيا يطبع وجهه بطابع الألم؛ مالك يابني؟ فأجابها الغلام: لا شيء لا شيء، إني مشدوه متعجب فقط. . . لقد ألفت أن أراك دائماً في ثياب الحداد. ولكن ولكن. . . أصحيح أن حدادنا على أبي قد انتهى؟ فألقت (مدام ليجيه) على المرآة الكبيرة أمامها نظرة غير عامدة فإذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها الذهبي، ولكن يناقض ذلك كل المناقصة زي ولدها المدرسي الأسود الغارق كله في حلة من حداد، ويرتجف صوت الأم حين تهم بإجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها فتغير مجرى الحديث وتقول:

- ولكن... قل لي... لعلك مسرور من أستاذك هذا الصباح؟ ثم... ثم كيف حال كتابتك في الإنشاء، أظنها أعجبته؟! ثم ناجت نفسها:

- سألبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة خصوصاً وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت متسع للغداء وللإفضاء إليه بالأمر...

على رغم من أن المحامي المتوفى موسيو (ليجيه) قد خلف لعائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير ثروة لا بأس بها، فإن مدام (ليجيه) لم تخالف شيئاً مما ألفته سابقا من تدبير واقتصاد في الإنفاق على المنزل. ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل في مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتون إلى الزوج بصلات القربى والمودة، فإن الإعداد لذكرى الميت لم يكن يحملهم جهدا أو مشقة، ولكن أنى لها بملء كرسي زوجها بشخص خاطبها جورج في حفلة الغد؟ أي عذر ستعتذر به لولدها؟ كيف تخل بهذه العادة التي يقدسها ابنها ويمجدها، والتي باتت تهبط روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب أخذت تحتل مكانها يوما بعد يوم من قلبها.

وفي صباح هذا اليوم في وثبة طافرة من وثبات الإرادة الغريزية أمرت مدام ليجيه الخادم فقالت:

- لويس، لا تضعي في هذا الغداء مقعد المرحوم زوجي على المائدة، بل عليك أن تضعي مكانه مقعدا لجورج فوكولت.

..

وحان وقت الغداء واتخذت العائلة أمكنتها حول المائدة، ولكن (شارل) الصغير ما كاد يرى المائدة والكرسي الجديد بدل كرسي أبيه المتوفى حتى حملق في وجه أمه وقد امتقع وجهه وانتسف لونه أولا ثم احمر واشتعل بالدم الملتهب. ونظرت إليه الأم برعب وهيبة، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي أيضاً. ولكن في تلك اللحظة الرهيبة الحرجة جرى أمر زاد أمر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتباكها ثم حيرها، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام (ليجيه). فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى المائدة إذا (بشارل) ولدها يلقي عليها نظرة تفيض بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذي لم يكن منبعه الحنق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان منها والشكر لها. .. ولكن عن أي شيء صدر هذا الامتنان؟! نجم مما صوره له

--

وهمه دون أن يتظننبالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة والدهشة التي بدت على وجه أمه، ولا نظرات الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم، فقر في ذهنه أن أمه قد تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديد لظنونه السابقة في وفائها لأبيه، لهذا أحتل مقعد أبيه أو الكرسي الذي وضع للخاطب (جورج فوكولت) محل كرسي أبيه، وقلبه يخفق من الفرح والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين... وانتهى الغداء وخلا المكان (بشارل) وبأمه فضم (شارل) أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح يقول لها وقد أرخى لعبراته العنان حتى بللت وجه الأم المسكينة الحائرة.

- آه، شكراً لك ألف مرة يا أماه. فقالت أمه في حيرة:

- ولكن لم هذا الشكر يابني؟! فقاطعها دون أن يترك لها الفرصة لمتابعة حديثها:

- أشكرك لأنك أحللتني محل أبي على مائدة الطعام في اليوم الذي تخلعين عنك فيه ثوب الحداد. إنك لا تدرين أي جميل أسديته إليَّ وملأ به قلبي الحزين... آه... ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة. لقد كنت منذ زمن أشك، بل أخاف من تصرفاتك فاغفري لي الآن هذه الشكوك والظنون... نعم كنت

أخشى أن تسنح لك في يوم ما فكرة الزواج لأنك ما تزالين صبية. ولقد أبصرت ثلاث أمهات من أمهات رفقائي في المدرسة يتزوجن ويسلمن

أبناءهن لأب ثانٍ غريب عنهم. ولكنك أجلستني تجاهك منذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت أنك تريدين أن تقولي لي: املأ محل أبيك يابني فقد آن لك أن تشغله وتواجه أختك وأخاك العزيزين وأمك التي تحبك، ولكن إن شغل مكان أبي ذلك الأب الذكي الطيب، فذلك ما ليس في وسعي ولكن أعاهدك أن أبذل له جهدي. وهنا تمثل لمدام (ليجيه) أنها كانت ستحطم قلب أبنها النبيل لو أنها انقادت لهواها الذي بدأت تشعر به نحو (شارل).

وفي هذه اللحظة وبينما (مدام ليجيه) تضطرب بين الماضي والحاضر، وتتدرج بين تيارين طاغيين. تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية حسناء، وآخر هادئ عميق من عطف أم رؤوم، إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعي ابنها الذي كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق. .

لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان يطلب الإذن لموسيو جورج الخاطب الجديد، فأبدى ابنها (شارل)

حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه الحركة فقالت في كبرياء ممزوجة بألم:

إبق مكانك يا (شارل) ثم التفتت إلى الخادم وتقول:

- قل لموسيو (جورج فوكولت) إنه من المستحيل على مواجهته هذه الساعة وسأكتب له جوابي كتابة. . .

وحين انفردت بابنها راحت تعانقه في لهفة وابتهاج ثم قالت: أبداً لن أتزوج يا شارل العزيز. أبداً لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويجرح قلبك. لن أرضى أن تتألم أنت كي أسعد أنا. إنك حسبي من دنياي يا بني وأظن أني حسبك أيضاً.